عبدالقادر الربّاعي وتحوّلات النقد الثقافي

د. غسان اسماعيل عبدالخالق

* مقدمة

مع أن المناداة بموت الأدب، تمثّل عند كثير من النّقاد والدّارسين، ضربًا من مناطحة الواقع الرّاسخ غير القابل للتشكيك، إلا أن مجرد التفكير بكل ما جرّته هذه المناداة من سجال وجدل في دوائر الثقافة والفكر الغربية، كفيل بأن يدفعنا للإقرار بأنها أحدثت موجات من الحَراك، في بركة النقد التي كانت قد شارفت على الركود في خمسينات القرن العشرين.

وإذا كانت الثقافة العربية بوجه عام، والحقل الأدبي منها بوجه خاص، هما أحوج ما يكونان إلى هذا الحَراك الفاعل الخلّاق، فإن النقد الثقافي بما يشتمل عليه من أبعاد فلسفية وفكرية، يمكن أن يمثّل الرافعة النموذجية التي قد تتكفل بانتشال الثقافة العربية والأدب العربي، من سباتهما الشّكلاني والمنهجي، وتنتقل بهما من حيز الانزلاق على السطوح الظاهرة المفضوحة إلى حيّز الغوص في الأعماق الغائرة المجهولة.

ورغم ان هاجس استعراض كلّ أو بعض الجهود النظريّة أو التطبيقيّة الغربية في حقل النقد الثقافي، يبدو دافعًا بالغ الإغراء، إلا أن هاجس الالتفات إلى بعض ما أنجز عربيًّا في هذا الحقل، يبدو أكثر إغراءً ولزومًا، في ظل ما تشهده المكتبة العربية من فقر شديد على صعيد النقد الثقافي. وهنا لا بد من التفريق بحزم، بين تلك الكتب التي اشتملت على نقد ثقافي مثل (مقدّمة) ابن خلدون – وهي ليست بالقليلة، وتلك التي ألّفت من منظور النقد الثقافي أو الدراسات الثقافية مثل (أسطورة الأدب الرفيع) لعلي الوردي و(الأدب موضوعًا للدراسات الثقافية) لإدريس الخضراوي، وهي نادرة جدًا.

***النقد الثقافي بأي معنى؟**

من حق القارئ أن يحاط علماً بمقصود النقد الثقافي، وفيما يلي موجز مبسط لأبرز أطروحات هذا النقد:

* إعلان موت الأدب بوصفه ثقافة النخبة، ومن ثم إعلان موت النقد الأدبي بوصفه المنهج الوحيد لدراسة أدب النخبة.

* إعادة الاعتبار للثقافة بوصفها أدب الشعب، ومن ثم الإعلاء من شأن المقاربات غير الأدبية، والعابرة للتخصصات، مثل الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم التاريخ.

* النصوص الجديدة المقصود بالدراسة تشمل الحكايات الشعبية وبرامج المذياع والمسلسلات التلفزيونية وأفلام السينما والملصقات والمطويات والبيانات السياسية الرسمية وغير الرسمية بوصفها ممارسات دالّة أي منتجة.

* الأدب المحض والنقد الأدبي المحض، هما أسطورتان أكاديميتان محضتان.

* النقد الثقافي في أبرز جوانبه، يمثل انقلاباً على المسلمات الأكاديمية التقليدية التي تضطلع بدور المرسِّخ والمبرر لسلطة المؤسَّسة الرسمية.

* توجيه طلبة ومؤسسات التعليم العالي في حقل الأدب، لتفعيل منهجيات التحليل الثقافي، بدلاً من الانشغال بأحاجي وألغاز الدراسات الأدبية المنغلقة ومحدودة التأثير جرّاء النمطية والتلقين.

* إيلاء الدراسات النسويّة العناية اللازمة، كونها تمثل مظهراً بارزاً من مظاهر الممارسات المعرفية المنتجة.

* تشخيص الدور الاشكالي الذي تضطلع به تكنولوجيات الاتصال، وخاصة على صعيد ترسيخ الثقافة السمعيّة والبصريّة على حساب الثقافة المكتوبة، وما قد يترتب على ذلك من أمّيات وشفويات جديدة.

* الانعتاق من قمقم الدراسات الجامعية المتخصصة، والانفتاح على مشاكل وقضايا المجتمع والحياة.

اليرموك و النقد الثقافي

سواء كان (النقد الثقافي) هو الخطاب الذي استهدف –مما استهدف– المؤسسة الأكاديمية بوصفها (قلعة النخبة) التي أَكد إدوارد سعيد أن عدد أفرادها في الولايات المتحدة الأميركية – مثلاً – لا يتجاوز ثلاثة آلاف أكاديمي يتواطأون على تبادل المجاملات، أو هو الخطاب الذي انطلق – بوجه خاص – من مكاتب المؤسسات الأكاديمية في الغرب لاكتشاف ثقافة العوام، فإنه ما زال قرين المغامرات الفردية النادرة في المؤسسات الأكاديمية العربية. و هذا ليس بالغريب، إذا نظرنا بعين الاعتبار، إلى حقيقة أن هذه المؤسسات ما زالت ترزح تحت وطأة التخصص الدقيق المنغلق الذي يوازي في تقوقعه واقع التعازل السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي و الثقافي في المجتمع العربي، فضلاً عن أوهام النخبوية المضاعفة التي باتت تهيمن على اجواء الجامعات العربية، بوصفها المصدّر الرئيس للموارد البشرية اللازمة للمؤسّسة الرسمية.

هذه مقدمة ضرورية، لإدراك حجم المغامرة الوظيفية التي أقدم عليها الدكتور عبدالقادر الرباعي من خلال كتابه (تحوّلات النقد الثقافي،دار جرير،2007) والذي يبدو تذكيراً معرفياً بالممارسات الثقافية الدّالة في واد يفيض بالمذكّرات المسكونة ببدهيات (أدبية الأدب) و نفي هذه

الأدبية عما سواه. على أن هذه المغامرة الوظيفية التي ربما كانت قد أجّلت عشرين سنة، لا تعدم محرّكاتها الموضوعية الدفينة، و التي تجسّدت – كما أرجح – في مجمل الظروف التي تهيّأت لجامعة اليرموك خلال الأعوام (1980–1985) من حيث الإدارة اللّيبرالية المبدعة التي تمثلت في شخص رئيس الجامعة آنذاك... الدكتور عدنان بدران، و من حيث التنوّع الهائل في جنسيات و ثقافات طلبة وأساتذة الجامعة، ومن حيث الجو التنويري والحواري المحتدم الذي ساد الجامعة، إلى الحد الذي تمكّنوا معه أن يلتقوا ويستمعوا إلى محمد عابد الجابري ومحمد أركون وفهمي جدعان خلال أسبوع ثقافي واحد فقط! ومن حيث تركيبة أعضاء الهيئة التدريسية في قسم اللغة العربية، الذي ضم نفراً من الأساتذة المحافظين مثل عمر الأسعد وعلي العتوم وابراهيم الفيومي، ونفراً من الأساتذة ما بعد الحداثيين مثل كمال أبوديب وأحمد الزعبي وعلي الشرع، ونفراً آخر من الأساتذة الحداثيين مثل يوسف بكار وإبراهيم السعافين وعفيف عبدالرحمن وعبدالقادر الرباعي.

إن هذا الاستطراد الذي يهدف –مما يهدف– إلى إحراز شرط التطابق مع أحد طروحات النقد الثقافي، وأعني به (تسييس الأدبي)، يمكن أن يفي بمطلوبه إذا نظرنا بعين الاعتبار، إلى حقيقة أن الاعتدال الحداثي الذي اتسم و ما زال يتسم به الدكتور عبدالقادر الرباعي، قد دعاه للتنويه بالدكتور كمال أبو ديب و الانتصار له في غير موضع من كتابه، رغم التعارض المنهجي و السياسي بين الاثنين. كما أن هذا الاستطراد سوف يكون مخلاً بالغرض، إذا لم نأخذ بعين الاعتبار، حقيقة أن عدداً وافراً من الطلبة أو المتلقّين أو القرّاء الضمنيين، قد مثّلوا أحد المحرّكات والنتاجات الإبداعية لتلك الأعوام الخمسة، وأبرزهم: زهير أبو شايب، أمين عودة، معن البياري،

باسل رفايعة، حسين رواشدة، زياد بركات، جمال مقابلة، مهى مبيضين، زياد أبو لبن، غسان عبدالخالق. لقد ختمت تلك الأعوام الذهبية بمحنة سياسية أحاقت بالجامعة في سنة 1986 وتمخضت –مما تمخضت– عن إنهاء عقد الدكتور كمال أبو ديب، وخفوت ذلك الوهج الفكري الذي أشاعته الجامعة.

تحولات النقد الثقافي

يقع الكتاب في 191 صفحة من القطع الكبير، و قد اشتمل على مقدمة و أربعة أبحاث مطّولة هي على التوالي: (قراءة في تحولات النقد الثقافي: 13–72) و (قراءة في آفاق مصطلح التأويل: 73–118) و(قراءة في لغة الاختلاف النقدي حول الحداثة وما بعدها –عبدالعزيز حمودة نموذجاً: 119–153) و(قراءة في قصيدة المسافر لعبد المنعم الرفاعي من منظور القارئ الضمني: 155–190). و فيما يمكننا ملاحظة أن البحث الأول الذي تدثّر الكتاب بعنوانه، قد احتل نحو ثلث صفحات الكتاب، وأن البحثين الثاني والرابع يقعان ضمن المجال الحيوي لنظرية التأويل نظرياً وتطبيقياً، فإن البحث الثالث هو أقرب ما يكون للنقد الثقافي التطبيقي أيضاً، وإن وقع في المجال الحيوي لجدل الحداثة وما بعد الحداثة في ضوء كتابي الدكتور عبدالعزيز حمودة الإشكاليين: المرايا المحدبة والمرايا المقعرة. وذلك لأن الكتابين ينطلقان من ويحيلان إلى السياسي في الأدب والنقد ويشتملان على كثير من أحكام القيم الأخلاقية الصارمة والباترة والصادمة. أي أن نصف الكتاب تقريبا يشتبك فعلا مع النقد الثقافي، وأن نصفه الآخر يشتبك مع نظرية التأويل. ومع أننا لا نعدم من يلحق بعض مباحث التأويل بالنقد الثقافي، إلا أننا نعتقد بأن عنوان الكتاب، كان ينبغي أن يقرن النقد الثقافي بالتأويل ليصبح: (تحولات النقد الثقافي والتأويل الأدبي)! مع

ضرورة النظر بعين الاعتبار الشديد لحقيقة أن عناوين العديد من الكتب، قديما وحديثا، قد أُطلق الجزء من محتواها ليدلّ على الكل. و مع ضرورة التنويه أيضاً بأن المخطط التنفيذي للكتاب (الفهرس) قد اشتمل على أخطاء فادحة وخادعة توهم القارئ بأن العدد الكلّي لصفحات الكتاب هو 237 صفحة فيما أن العدد الحقيقي هو 191 صفحة، كما أن هذا المخطط التنفيذي (الفهرس) يوهم القارئ بان البحث الرابع مثلاً يبدأ في الصفحة 203 وينتهي في الصفحة 237، فيما أن صفحات الكتاب تنتهي فعلا بالصفحة 191. هذا فضلا عن كثير من الأخطاء المطبعية التي لا ندري من يتحمّل مسؤوليتها: الناشر أم المؤلف؟!

ايا كان الأمر، فقد اختصر الدكتور عبدالقادر الرباعي الظروف التي أدت لظهور النقد الثقافي بمقولة (موت الأدب)؛ الأدب بوصفه ثقافة النخبة الرسمية المتعالية على الجماهير، وانطلاق الدراسات الثقافية بوصفها المقتربات المناسبة والفاعلة والعابرة لكل التخصصات. وحرصا منه على تقليب هذا النقد الجديد، على وجوهه المختلفة، فقد عرض لعدد وافر من أعلامه:

* فتوقف مع كتاب (نظرية الأدب) لتيري إيجلتون، وأبرز نظرية النقد السياسي لديه.

* وتوقف مع كتاب (موت الأدب) لألفن كرنون، وأبرز تشخيصه لدور التكنولوجيا في تدمير الأدب.

* وتوقف مع كتاب (الأصوات الثقافية الخفية في الأدب الإنجليزي) للارس سوربيغ، وأبرز قناعته بأن الأدب سيظل يمثل المتن، وبأن الثقافة ستظل تمثل الهامش.

* وتوقّف مع كتاب (معنى الأدب) لويندل هاريس، وأبرز قناعته بأن النقد الثقافي ليس إلا مؤامرة على وحدة النص الأدبي التي لايمكن إدراكها إلا عبر المنهج التأويلي.

* وتوقف مع كتاب (الأدب الماركسي والنظريات الثقافية) لمويرا هازلت، وأبرز قناعتها بأن الدراسات الثقافية ليست إلا حزمة من التقليعات السياسية التي تهدد اللغة والأدب بالانحطاط.

* وتوقّف مع كتاب (ثقافة النقد ونقد الثقافة) لجيليس جَن، وأبرز قناعته باستحالة استبدال ما هو عارض ومتمخض مثل النقد الثقافي، بما هو جوهري وقارّ مثل النقد الأدبي.

* وتوقف مع كتاب (الأدبي في الدراسات الثقافية) لأنتوني ايستهوب، وأبرز قناعته بضرورة الجمع بين أدب النخبة وأدب الجماهير، عبر إمكانية الجمع بين منهج النقد الأدبي ومناهج النقد الثقافي.

هذه هي الكتب التي توقف معها الدكتور عبدالقادر الرباعي، مترجماً وعارضاً. وقد حاولت أن أبرز اليافطة المتقدمة لكل كتاب –بلغتي الشخصية– في ضوء العروض الضافية التي اضطلع بها الدكتور الربّاعي. ومن الملاحظ أن كتابا واحدا فقط هو كتاب (نظرية الأدب) لتيري إيجيلتون، من أصل سبعة كتب، يمكن الرجوع إليه بوصفه مبشّراً ومرجعاً رئيساً للنقد الثقافي، فيما أن الكتب الستة المتبقية ليست إلا ردود أفعال على النقد الثقافي. وقد تراوحت هذه الردود بين العنيف جداً (سوربيغ، هاريس، هازلت) والعنيف(جَن)، والهادئ (كرنون)، والتوفيقي (إيستهوب). ومع أن الدكتور عبد القادر الرباعي يبدو متضامناً جداً مع أطروحات إيستهوب التوفيقية بخصوص النقد الثقافي – وهذا ليس بالمستغرب كونه ناقداً وأكاديمياً حداثياً معتدلا كما أسلفت – إلا أن إخضاع العروض السبعة لمعايير تحليل المضمون، سوف يفضي بنا إلى الاعتقاد بأن

المساحة التي أفردها الدكتور الرباعي لمناوئي النقد الثقافي، هي أكبر بكثير من تلك التي أفردها لأنصار النقد الثقافي الذي اختصر في شخص تيري إيجيلتون. وقد تفضي بنا أيضاً، إلى الاعتقاد بأن هذا التوسيع على نقاد النقد الثقافي، ما هو إلا التكتيك المنهجي الذي اتّبعه الدكتور الرباعي لنقض أطروحات النقد الثقافي دون أن يجشّم نفسه مهمة التصدي لتلك الأطروحات شخصياً. ومما يعضد هذا الاستنتاج، أن عروض الدكتور الرباعي تظهر قدراً كبيراً من القدرة على التكثيف والتحليل والاستنتاج، لكن ملاحظاته الشخصية –باستثناء استدراكاته على ايجلتون– بدت نادرة جداً، سواء في تضاعيف العروض أو في الخلاصة التي ختم بها بحثه عن الحداثة وما بعدها، وفي الخلاصة التي ختم بها بحثه عن تحولات النقد الثقافي، وفي الخلاصة التي ختم بها بحثه عن الحداثة و ما بعدها.

على أن الملاحظة الأكثر إثارة للدهشة في (تحوّلات النقد الثقافي)، تتمثل في ذلك الوعد الذي جاء متأخراً في نهاية البحث، ثم لم يتم الوفاء به أبداً في (الحداثة وما بعدها)؛ فعلى الرغم من أن الدكتور الربّاعي قد عرّض بالدكتور عبدالله الغذّامي مؤلّف:(النقد الثقافي: دراسة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، 2001) تعريضا واضحاً، حينما قال في مقدمة كتاب "التحولات": (لقد استجاب بعض الباحثين العرب لمثل هذه الدعوة {موت الأدب—النقد الثقافي} فدرس الشعر العربي قديمه وحديثه من هذه الزاوية، فحمّله مسؤولية كبرى في خلق الفحول والطغاة على مدى التاريخ العربي كلّه)، ولم يخصه في الخلاصة إلا بفقرة واحدة نصها: (إن هذا الصراع المحتدم في المجتمع الغربي ما زال ضبابي الرؤية لذا لا أجد من الحكمة أن

نتسرع فنميل مع الجديد حيث مال كما فعل الدكتور عبدالله الغذّامي في كتابه "النقد الثقافي:دراسة في الأنساق الثقافية العربية"؛ فالنقد الثقافي ما زال مولوداً لم يشتد ساعده بعد)، إلا أنه يعود في الفقرة الأخيرة من الخلاصة إلى التنويه به على نحو لا يخلو من تحرّش واضح فيقول: (لقد أشرت إشارة عابرة إلى جهد الدكتور عبدالله الغذّامي؛ فذلك لأني أرى من الواجب بعد هذا التجوال عبر تحوّلات النقد الثقافي في بعض مصادر هذا النقد- وهي جزء من المصادر التي اعتمدها الدكتور الغذّامي- أن أعود إلى كتابه في محاورة علمية رصينة ومسؤولة)!!

وللحق، فإن هذا الوعد بمحاورة كتاب الغذّامي، الذي يعد الاسم الأبرز عربياً في حقل النقد الثقافي، محاورة علمية رصينة مسؤولة، لم يتحقق، أو هو تحقق جزئياً في ختام بحث (الحداثة وما بعد الحداثة) -ولا أدري سبب الإصرار على تذكّر الغذّامي في الخواتيم؟!- حيث قال الدكتور الرباعي حرفياً: (ثم إننا نجد ... بعض النقاد العرب مثل عبدالله الغذّامي الذي تأثر ببعض الدراسات الغربية الحديثة تأثراً بالغاً فدعا إلى موت النقد الجمالي وتبنى نقداً آخر بديلا سمّاه "النقد الثقافي" في كتابه المسمى: النقد الثقافي :قراءة في الأنساق الثقافية العربية. وحين طبّق هذا النقد على الشعر العربي؛ قديمه وحديثه، حمّل هذا الشعر وزر فشل النسق العربي كله، فالشعر – برأيه- هو المسؤول عن اختراع الفحل، وهو المسؤول عن صناعة الطاغية ، ونسقية العنف، والاستفحال، وغير ذلك مما يؤخذ على الثقافة العربية من سلبية إزاء البنية الجذرية للإنسان العربي على مدى التاريخ. ثم استخدم لغة فيها غير قليل من العنف الذي فرضته –حسب رأيه- "قبحيات" الوظيفة التي أداها ذلك الشعر وأعلامه المعروفون مثل أبي تمّام والمتنبي من القديم، وأدونيس ونزار قباني من الحديث). وقد أردف الدكتور الربّاعي هذا الرأي الذي استمد الجانب

التقييمي فيه من كلمة الغلاف الخلفي لكتاب النقد الثقافي بالقول : (لقد تجاهل الغذّامي أن شعر المديح، الذي نال من ذمه الكثير، كان يقدم بين يدي الممدوح القيمة الإنسانية المثالية للقائد الذي يسعى لأن تكون قيادته –المحدودة أو الكاملة– مثالية؛ كالبطولة ، والسماحة ، والعدل ، والإيثار ، وإغاثة الملهوف ، وحماية الحق ، وغير ذلك من الأخلاق وجليل الأعمال، وقس على هذا شعر الفخر والرثاء. أما شعر الهجاء فكان سلب كل تلك القيم من المهجوّ ليظهر أمام الناس عارياً منها. ومن عري منها فقد خسر احترام مجتمعه ومحبته. وذلك هو الخسران المبين. هذه هي اللوحة الإنسانية المثالية التي قدّمها الشعر وترك لمستمعيه أن يختاروا منها وجهها الوضّاء فيَسعدوا و يُسعدوا أو خلفيتها المظلمة فيَشقوا و يُشقوا).

كما أعاد الدكتور الربّاعي بعد هذا الاستطراد التوضيحي لرأيه في أطروحة النقد الثقافي للغذّامي، الاعتذار عما كان متأكداً من أنه سوف يساور عقل كل ناقد وباحث ممحّص فقال: (إنني أعلم أن هذه الوقفة مع كتاب الغذامي قصيرة لا تشفي الغليل؛ فما في الكتاب من أفكار جريئة وغريبة ومفاجئة يحتاج وقفات أطول، قد تسمح الأيام القادمة بمثلها)!!

لقد فوّت علينا هذا الاعتذار المكرّر، ثلاث فرص في آن واحد؛ فالدكتور عبد القادر الربّاعي أكاديمي و ناقد متمرّس بأصول النقد الثقافي في لغته الإنجليزية، وكان يمكن أن يمدّنا بملاحظات قيمة بخصوص مدى الدقة والوضوح اللذين اتسم بهما الجهد التأصيلي للنقد الثقافي الذي استغرق خمساً وثمانين صفحة من كتاب الغذامي. و الدكتور عبدالقادر الربّاعي أكاديمي وناقد متمرس بمناهج النقد الأدبي القديم والحديث، وكان يمكن أن يمدنا بملاحظات قيّمة أيضاً بخصوص مدى النجاح الذي أحرزه الغذامي في تطبيق النقد الثقافي على الثقافة العربية. والدكتور

عبد القادر الربّاعي أكاديمي وناقد متمرس بحرفة النقد، وكان يمكنه أن يمدنا بملاحظات قيّمة أيضاً بخصوص مدى قناعته بجدية وأصالة الغذامي كناقد بوجه عام، وليس بوصفه ناقداً ثقافياً فقط.

وقد يقول قائل: الإجابة عن هذه الفرص الثلاث الضائعة، قد توفرت في الاقتباسات السالفة، لكننا سنردّ بالقول: الإجابة عن هذه الفرص الثلاث الضائعة لم يتوفر منها إلا النزر اليسير، والاقتباس الأخير من كلام الدكتور الرباعي، يؤكد ذلك بما لايدع مجالا للشك.

والحق أن كتاب (تحوّلات النقد الثقافي) للدكتور عبدالقادر الربّاعي، رغم كل ما أوردناه من ملاحظات فنية وموضوعية، يقدّم تعريفاً طيباً بالنقد الثقافي في أصوله الإنجليزية وبغير قليل من أعلام المنشغلين بهذا النقد، تأسيساً أو رفضاً. ويظهر قدرة استثنائية على صعيد تحديد وعرض المفاصل الرئيسة في قضايا النقد الثقافي بوجه عام، وفي أطروحات المنخرطين في انتاج هذا النقد، أو في نقد هذا النقد بوجه خاص.